رشفة دافئة

دانية ياسر قصاص

قصة قصيرة

رشفةٌ دافئة

قصة قصيرة

دانية ياسر قصاص

الإهداء:

إلى كلِّ ما يشبهُ الوجهة الآمنة التي نأوي إليها بعد هزائمنا في/مع الحياة.

أحملُ الكيس بين يدي، ورغبةٌ جامحة تدفعني لضمه إلى صدري هناك حيث يرفرف فؤادي بين أضلعي، لا أصدّق أنني وجدتُ الكتاب الذي لطالما بحثت عنه وتمنيت اقتناءه أخيرًا!

أخطو بتأنٍّ، أراقب المباني والشوارع بتأمل، أبتسم للبساطة التي يتمتع بها هؤلاء الناس، هذه البلاد الطيبة التي تغرّبت عنها منذ كنتُ طفلة صغيرة، رحلتُ لا أحمل معي سوى ذكريات بحجم حقيبة يدٍ كانت بحوزتي، ربما لهذا السبب فرحت بالعودة وسُعدتُ برؤيتها أكثر من بقية أفراد عائلتنا، إذ أنني لا أسترجع صورة قديمة بهيّة لبلدتي قبل الحرب، لا يوجد في ثنايا ذكرياتي معالمُ أكثر حياة وبهجةً مما رأيت، لا أتحسّر لمسرّاتٍ سُرقت مني بغتةً بعد أن اعتدت عليها وحسبتها جزءًا مني، لا أتألم لخساراتٍ عشتها وتجرّعت علقمها لسنوات في غربتي، الحمد لله، لقد غادرتُ خفيفة لكنني عدتُ بوعي

وشوقٍ وحبٍّ ما حسبت أنني أحمله لها - بذلك الحجم- في خافقي طيلة تلك السنوات.

بشعٌ أن يغادر الإنسانُ مكانهُ مثقلًا بالمشاعر والمواقف والحنين، ثم يعود ظانًّا أنه متحصنٌ من الألم لأنه فقد الشعور به لكثرة ما عاشه، فحسِب نفسه خفيفًا، تفاجئه الأيام بأن جراحه لم تلتئم بل حوّلت قلبه إلى إسفنجة ممتلئة بالثقوب، كلما سُقيت بماء الذكريات تثاقلت!

انتشلني صوتُ عمتي من استغراقي مع الخواطر الشجية، حسنًا سأحاول ألا أدعَ أي فكرة تسلبني فرحتي بهذا اليوم الجميل.

"أسرعي يا ندى سنركب الباص بعد قليل"

لقد طلبت عمتي اليوم مني الإسراع نحو خمسين مرةٍ تقريبًا، لا أدري هل أنا بطيئة فعلًا أم أنهم يعيشون بوتيرة أسرع يا تُرى؟ لقد تراكضت

الساعات حتى أنني لم أشعر بأفول الشمس، لقد زرنا العديد من الأماكن ثم اصطحبتني عمتي إلى مكتبة غاية في الروعة، شعرتُ وكأنني أتمنى الضياع فيها إلى الأبد وأتوه بين صفحات الكتب كما أريد، والآن تطلب مني الإسراع لأن علينا العودة قبل أن تصل إحدى قريباتنا التي ستصل طائرتها قرابة التاسعة، وعلينا الاستعداد جيدًا لاستقبالها.

أتمنى كونها عمةً متفائلة وتحمل روحًا مرحة، لأن عمي وزوجته جعلا ليلة أمس عزاءً لكثرة البكاء والنحيب الذي أثاروه بعودتهم وذكرياتهم!

لم يكن في حسبان أيٍّ من أقاربي أن هناك يومًا سيجمع ما شتته الحرب من أوصال جمعهم، لكنهم منذ مطلع الشهر الماضي وهم يخططون للقاءٍ دافئ يسقي القلوب قربًا تاقت له أرواحهم المشتاقة.

"ندى، ارفعي عباءتكِ واعبري دون تباطؤ، الأرض هنا ملأى بالماء"

لا شيء يزعج عمتي سوى عباءتي وقفازيّ اللذين لم أخلعهما حتى في المكتبة وأنا أقلّب بأناة بين صفحات الكتب التي تعاند أصابعي!
حاولت المرور كما أرادت دون رفعها لكن جزءًا منها اتسخ، آه.. ما حيلتي مع هذه الشوارع؟ كيف أقنعها أنني على استعدادٍ لإعادة ترميم هذه الطرقات وتنظيفها لكنني بالتأكيد لن أشمر وأركض لأتحوّل إلى "باتمان ظهر وسط المدينة" هكذا ويرفرف نقابي وأطراف جلبابي في الهواء، لا أفهم سبب ابتلال الشوارع برغم كونه يومًا مشمسًا لا غيم فيه ولا مطر!

وكأن عمتي سمعت صوت أفكاري لتعاجلني مستفسرة:
"إنه الخميس يا ندى، هل أنستكِ الغربة ما الذي يعنيه الخميس للسوريين؟!"

ضحكتُ مستدركةً الأمر، متذكرة قواعد أمي الجليلة بتخصيص يوم الخميس للتنظيف، لكنني تغابيت:
"وما في الخميس؟ إنه يومٌ تُرفعُ فيه الأعمال إلى الله"

قالت عمتي بنبرة مشاكسة:
"أحسنتِ، إنه يوم النهايات لكل شيء، لدوام العمل والمدارس والجامعات، رفع أعمالنا إلى الله، وكما تعلمين نساءُنا يحبون الخواتيم البيضاء، فيهلكون أنفسهم بالعمل في هذا اليوم ليرتحن يوم الجمعة يا ندى"

ساد الصمت للحظات ثم عبرنا الشارع العريض وأسرعنا نحو أحد الباصات.

ما إن جلستُ في مقعدٍ منفرد خلف مقعد عمتي حتى استأذن مني مساعد السائق طالبًا مني العودة إلى المقاعد الخلفية إذ أنني ناعمة وقصيرة

وسيتسعُ لي المكان هناك لأتيح الجلوس لشخص آخر هنا، تأففت ونهضتُ لأبدّل مكاني بهدوء، ربما كان يفترض بي أن أغضب وأعدها إهانة، لكن لا بأس لن أسمح لأي شيء بتكدير يومي الهانئ، فقد تغاضيت أيضًا وضحكت حينما أقبلت عاملةُ المكتبة تقهقه وهي تسخر من وقوفي على أطراف أصابعي حتى أصل لكتاب ما في الرف العلوي، احمررتُ خجلًا من كلماتها:
لا تلعبي كرة السلة مع الكتاب! نادِني وسأجلبه للكِ".
ثم ضحكت ومدتْ يدها بخفة لتسحبه لي، فتداركتُ الأمر قائلة:
"تعرفين نحبُّ لذة الوصول والتعب للظفر بما نريد، لذلك شكرًا لم أعد أريده يا عزيزتي".

وحينما لمحت الحنق في وجهها، التقطته منها وأضفته لمشترياتي، معضلتي الوحيدة أنني لا أجيد السكوت لو تعرضتُ للسخرية، عبثت الذكريات بي وأعادتني لذلك اليوم حينما زارتنا

امرأة تود الخطبة لابنها، وصعقتها المفاجأة حينما رأتني، فأخذت تتحسّر على المسافات التي تكبّدت قطعها، فابنها -حصنته بأسماء الله التامة من العين والحسد- لاعب كرة ويريد زوجة طويلة!
يومها لم أتمالك غيظي من أسلوبها وهتفت بسخرية:
"هو لاعب لأنه طويل فهمتها، ولكن لماذا يريد عروسًا طويلة أيريد أن تشاركه اللعب في نفس الفريق؟"
يومها انتابت المرأة نوبة سعال أثناء رشفها من القهوة، وعبست أمي في وجهي آمرة إياي بإحضار الماء ثم الانصراف لغرفتي، ربما يكون الأمر كما قالت أمي: "عوّضكِ الله بلسان طويل تدافعين فيه عن طول قامتك!"

استرحت بين مجموعة من الفتيات وحمدتُ الله أن أفسحوا لي مجالًا قرب النافذة، منذ كنت صغيرة وأنا أعتبر الجلوس قربها مكافأة! رغم أنني أشردُ في الفراغ أكثر مما أشردُ في تفاصيل الطريق!

ولأنني لا أكره شيئًا كالجلوس في المنتصف، ثمةَ شعورٌ مُقلقٌ في كل مُنتصف، وكأن هناك قيدٌ خفيٌّ لا يُرى يكبّل الأيدي والأقدام، ولا يسعنا حياله سوى الانتظار بصبر، بصبرٍ كثيرًا ما ينفد على حين غرة منا، وتهترئ عراه كلما أجبرتنا الحياة على ارتدائه دون إرادة منا.

ابتسمتُ، ورفعتُ رأسي أحدّق في الركاب بعيونٍ متأملة، كقارئةٍ تحاول فهم سطور رواية جديدة، حانت مني التفاتةٌ عبر الشُّباك فوجدتُ مساعد السائق يصيح باسم وجهتنا في وجوه الناس، ويحاول إقناعهم بالصعود للركوب معنا، يا إلهي إنه يمتلك إصرارًا عجيبًا أخالهُ سيسحب الناسَ من معاطفهم ليضعهم هنا برغم عدم وجود مقاعد شاغرة، أذكر أنني في الغربة كنتُ أركب باصًا تتساوى مقاعده الفارغة مع المحجوزة ومع ذلك كان ينطلق دون أي اهتمام لهذا الأمر، هؤلاء الناس يريدون العمل بإتقان على ما يبدو!

فجأةً علت أصوات الموسيقى وانطلقت أغنية ما وبدأ الباص بالتحرك، اقتربت فتاة ما ناعمة، فشعرتُ بأنها طُردتْ لذات السبب الذي طُردتُ لأجله، كانت غاضبة يكسو وجهها الاحمرار، جلست في المقعد قبالتنا، أطلقت عددًا من السباب والدعوات، ثم علا صوت بكائها.

سألتها الفتاة التي تجاورني:
"أنتِ بخير؟ من هذا الذي تدعين عليه يا حلوة؟ فضفضي سترتاحين"
أضافت بنت أخرى:
"أو ربما نساعدكِ، أو ندعو عليه معكِ"

كنَّ جادات جدًا مما جعلني أكتم ضحكتي، لقد اهتمّتا لمشاعر فتاة لا يعرفونها، أهو اهتمامٌ حقيقي أم محضُ فضول عابر فحسب؟
لا أنكر أن كل الأجواء هنا في وطني مفعمة بالشعور حتى وإن كانت ليست حقيقية تمامًا أو صادقة، لكنها تنمُّ عن الشعور بالآخرين

ومشاركتهم للحظاتهم، بينما كل الأمور في الخارج باردة ومتبلدة، حتى وإن جلست تبكي على قارعة الطريق لن يتوقف من أجلك أي أحد ليسألك عن السبب، فرحتُ بغزل البنات التي ضيّفني إياها العم مجانًا عند شرائنا من عنده، عند ابتسامة جميلة رسمتها في وجهي إحدى العابرات، ابتهجت حينما ألقيتُ مزحةً بين مجموعة فتيات في محل للملابس ففُهمت، جميلٌ أن تشعر بأن الأمور لا تحتاج للتكلف، أنت مفهومٌ كما أنت.

استدارت الفتاة الباكية إلينا، مسحتْ عبراتها بمنديل ورقي، مجيبةً بنبرة مهتزة:
"هذا السائق، الرجل الفاشل، ليته يموت الآن، ليته يختفي!"
شعرتُ بالخوف، يا إلهي.. كيف تدعو على السائق؟ ماذا لو تعرضنا لحادث ما، سنكون باقة نضرة من الموتى!

أفصحت الفتاة ذات الدمعات:
"إنه خطيب صديقتي، كان عرسهما نهاية هذا الشهر، لكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب بسببه، الفتاة على شفا حفرة من الانهيار، كنتُ أصطحبها في مشوار لأروّح عنها وصادفناه هنا فأجبرنا على الصعود ليتحدث إليها"

"أين هي؟"

سألت إحدى الفتيات وأضافت أخرى:
"أها... الآن فهمت سبب هذه الأغاني البائسة عن القلوب المكسورة والمحروقة، يحاولُ أن يظهر ندمه إليها، وحاله بدونها"

أجابت صديقة البنت:
"نعم صحيح، هي في المقدمة لقد سحبها لتجلس بالقرب منه، إنه لا يفهم انتهاء هذه العلاقة ولا يُدرك أن ما خلّفه من دمار لن ترممه اعتذارات العالم كله!

تخيّلن يا بنات لقد أقسم عند رؤيتنا أن باصه لن يتوقف مالم يستعيد قلبها، ويصحبها معه في نهاية المطاف".

أستنكرُ كيفية تفاهمه معها وهو يقود الآن؟
كيف سيصالحها؟ بهذه الأغاني الهابطة والتافهة؟
يا للغرابة! على ما يبدو أنه مصمّمٌ على
اصطحاب خطايا وآثام كل من يسمعها الآن مع
فتاته الحزينة، مند متى كانت الموسيقى وآثامها
قادرة على الإصلاح؟
أي توفيق يبغيه من الله؟
ارتجَّ الباص وكأنه كان على وشك الاصطدام
بسيارة ما، يا الله على ما يبدو أنه سيحصد
أرواحنا في محاولاته لحصاد ثمر هذا الحب
الفاشل وإنجاحه.

لا شيء يثير استغرابي الآن سوى ثقة هؤلاء
الفتيات الأربع على تبادل الأسرار هنا، وسط هذا

الضجيج والزحام، كيف ينثرن مكنونات صدورهن في مكان كهذا؟
تحدثت إحداهنّ عن ظروفها بالعمل والأخرى عن علاقة فاشلة مرّت بها، وتلك لا تزال تنثر أسرار صديقتها على مسامعهن غير آبهة بأن السَّر أمانة عظيمة، وحيوات الآخرين اللاتي نعيشها معهن ليست مشاعًا للجميع ليدري بها ويدلي بدلو آرائه بها.

علا صراخ أحد الركاب معترضًا على ما يلوث سمعه، طالبًا منهم احترام ركاب بعمر آبائهم، فأجاب الشاب بطريقة ساخرة بأنه "سيضع له أم كلثوم حتى يروّق" وهنا اشتعل لهيب غضب العجوز بشدة وبدأ الاثنان برشق التهم وقلة الأدب، فاعتذر مساعد السائق وأطفأ المذياع، عمَّ الهدوء بعد عاصفة الصخب والثرثرة تلك، الطريق مزدحمة بشدة لدرجة تشعرني أننا في طوكيو وليس في محافظة سوريّة!

لم أعش يومًا إثارة كهذه في المواصلات، لا مجال هنا لجلد الذات أو لاجترار الذكريات، ومن المستحيل أن يحظَى المرء بغفوة لبضع دقائق، أعترفُ أن البلاد ليست وردية تمامًا كما ظننت، والناس ليسوا جميعًا رائعين وكأنهم ملائكة، الحياة تضج بالصالح والطالح، وهناك أمور تحتاج تقويمًا وتعديلًا ولكن بالتأكيد لن نستطيع فعل ذلك بضغطة زر، ولن نغيّر الناس كأنهم آلات قابلة للتعديل!

عاد صوت الموسيقى للعمل بعد نزول ذلك العجوز، ليته لم يصل لبيته!

هتفت فتاة ما: "الحمد لله هيا لنتابع أحاديثنا، وماذا حدث ألم تعرفا بعد؟"

تغاضيتُ عنهن، فجأة ارتسمت ابتسامة دافئة على وجهي عند رؤيتي لرجل أربعيني يضع قالب كيك في حجره ويراقبهُ برضًى وبهجة، رغم

وضوح تعبه ووهنه، تخيلتُ أنه أبٌ لأطفال ينتظرونه، وسيُكافئهم بحلوى نهاية الأسبوع، يتناسى تعبه بفرحة صغاره، ما أنبل الآباء، ما أعظم أجورهم عند الله، أذكر أبي الذي كان يسافر ويختفي طيلة الأسبوع ليعود مثقلاً بالمتاعب، محملًا بالأغراض والسعادات لنا، رغم ظروف المعيشة الصعبة لم يقسُ، لله درّ كل أب، وكل قلبٍ هيّنٍ ليّن.

لمحتُ فتاةً على بعد مقعدين تقرأ أذكار المساء في تطبيق مسلمونا على هاتفها، كانت تبدو غارقة في السكينة والراحة، وكأنها في عالمٍ آخر غير عالمنا، عزمت على تقليدها فالله يحب من لا ينساه في الزحام، من يذكره حينما يغفل الكثيرون عن ذلك، لأن ذلك دليل محبة وإيمان.

أخرجتُ هاتفي فسألتني الفتاة المجاورة لي: "لماذا أنتِ صامتة؟ شاركينا الحديث، تبدين ساهمة منذ أن صعدنا فيمَ تفكرين؟"

ضحكت أخرى:
"ربما هي لعنةُ الحب يا عزيزتي!"

كيف أخبرهما أنني أعتبره أمرًا مخيفًا كارثيًا؟
لكنني رغم ذلك أنتظر تجربته، وأنني فتاة
انطوائية تُحادث نفسها أكثر مما تحادث الآخرين؟

ضحكت:
"أنا مندهشة فحسب، لم أركب مواصلات مثيرة
هكذا من قبل، غير أنها مترجمة للعربية!"

"إذن، لقد كنت مغتربة؟"
ارتبكتُ، خشيتُ أن أبدأ بسرد قصة حياتي مثلهن
بعد قليل، اختصرت:
" نعم "
" لكنك لا تشبهين نساءنا وكذلك لا تشبهين
المغتربين!".
"ملاكٌ متفرد، يا سبحان الله"

ضحكتُ والفتيات، وهل عليّ أن أتحدث بلغة أخرى لأشبههم مثلًا؟
الحمد لله حسّي الفكاهيّ كثيرًا ما ينقذني ويوقعني في المصائب أيضًا، أستخدمه كلما كرهت الإجابة بصدق، لأن تعليقها ذاك هو الحقيقة التي لا أفهمها!

أنا لم أعش هنا لكنني مثلهم بطريقة ما بحكم تربية أهلي، ولهجتي، ومعتقداتي، لكنني عشت هناك كبرتُ في أرض ليست لي، أحببتها، ظننتُ أنني جزءٌ منها، لكنها لا تشبهني، جذوري هنا لكن نموي وتفتّح أزهار شبابي كان هناك، أنا أنتمي إلى هنا وأرفرف براحة في وطني، لكنني لن أتنكر لذكريات عمرٍ عشتها بفرحها وترحها في مكان احتضن أيامي بأمان.

وضعت الفتاة المجاورة يدها على كتفي هامسة:
"هل سمعتِ قصة صاحب الباص؟"

وتابعت بصوت أعلى:
"لقد تغير نمط الأغاني هل تظنين بأنهما تصالحا؟"

قاطعتها صديقة الفتاة المعنية بالحديث:
"مستحيل قطعًا! ليس بهذه السهولة على الأقل، لقد ارتكب خطيئة بحجم رأسه، عليه أن يعاني كما جعلها تعاني".

تفكّرتُ في تلك الخطيئة التي بإمكانها أن تدمّر زواجًا كان قاب قوسين أو أدنى، ما الذي يجعل فتاةً سلّمت مفاتيح فؤادها لرجل أن تسلبها منه وتتوارى عنه، تتمنى رؤيته مكسورًا، مذلولًا قبل أن تفكر في العودة إليه؟

عجيبٌ هو الحبّ لأنهُ يُخرجُ من الإنسان أجمل ما فيه، وأرقَّ ما تنطوي عليه سريرته حينما يكون ناضجًا، عذبًا، بهيًّا، وهو نفسه القادر على إخراج أسوأ نسخة من ذلك الإنسان حيث يبعثر نفسه

ليُخرج لؤمها وقساوة ما زرعه في جنباتها؛ حينما يكون أنانيًا، كاذبًا، بلا رحمة أو حكمة!

قلّبتُ تعبيرها في رأسي: "خطيئة بحجم رأسه!" كدتُ أنهضُ لرؤية رأسه لعلّي أقدّرُ حجم ورطته، لكن لا مهلًا.. محالٌ رؤيته وسط هذا الحشد من الرؤوس!

لمحتُ يدًا تلوّح لي في المقاعد الأمامية دققت النظر فإذا بها عمتي، حملت هاتفها وأشارت إليه، أسرعت لتفقد هاتفي وأنا أفكر بالمسكينة يا الله أيعقل أنها تنتظرني منذ وقتٍ طويل؟
وجدتُ رسالةً منها تخبرني بها أننا كدنا نصل، تأهبتُ لذلك ثم حينما توقّف مررت بصعوبةٍ حتى وصلت إلى الباب بسلام، ألقيت نظرة خاطفة حيث السائق فوجدته برأس صغير ضاحك يرمي بالنكات التافهة و مخطوبته على المقعد الموازي تجود له بالضحكات والابتسامات اللطيفة، متناسيةً فعلته السوداء وخطيئته التي تفوق رأسه

حجمًا كما قالت تلك الصديقة التي تدعو عليه في الخلف وتُذيع ماضيه الأسود أمام الناس، ولا تعرف أن صديقتها تُحلّق هنا مع الفراشات، وغدًا يتصالح الزوجان ويعاديان تلك الغريبة، ليست المشكلة في بوحنا لمن ليسوا أهلًا لحفظ الأسرار فحسب، بل بنتائج ذلك وبتحوّل ذلك الصديق لعدو لو أننا تراضينا مع من جعلناه أشرَّ الأشرار في سكرة الغضب، أما تلك الصديقة فأتمنى نصحها بمثلٍ تقوله جدتي: "بعمرك لا توقف بصف حدا ضد حدا بكرة بيتصالحوا ويعزموا بعض على الغدا وبتصير انت من العدا".

كنت أمشي مع عمتي وأنا أفكر في كيفية مسامحتها له بتلك السرعة!
أثق أن معظم الفتيات - وليس كلهنَّ - أرقُّ من سحابةٍ صيفية، وأكثر تعاطفًا وصدقًا، وأن بضع كلماتٍ جميلة قادرة على التلاعب بقلوبهن، وكسب حنانهن، معطاءات، لكنهن مثيراتٌ للشفقة

أحيانًا، ورغم ذلك أنا لا أتخيّل شكل العالم ومدى قبحه لو لم نكن فعلًا كذلك!

"عمتي الجميلة سأكافئك بكوبِ قهوة فرنسية لاصطحابي في هذا اليوم الجميل".

ابتسمت عمتي ودلفنا للمحل، سهوت أثناء الحساب وأعطيته بالدولار بدل الليرة، فضحك وسعِد وأخذ يدعو الله بأن يعين جميع المغتربين الكرماء على العودة إلى رحاب الوطن، هل فئة الدولار تشرح الصدر إلى هذه الدرجة؟

أمسكت كلتانا بكوبها الورقي وخرجنا، أخذتُ رشفة أمدتْ فمي وجسدي البارد بجرعة دفء، بخطًى متأنية كنا نتمشى عائدتين معًا بعد يومٍ لن يُنسى، أحبُ العودة للمنزل، العودة إلى غرفتي في نهاية اليوم مع فنجان قهوة أو كأس بابونج، العودة للديار القديمة، إلى أرض الوطن الذي يعيش في أعماقنا.

العودة إلى حضن أمي، إلى كتف أختي، إلى قلوب الأحباب بعد جفاء أو غياب، إلى ضحكة أعرفها وتعرف صداها في طمأنينة صدري.

العودة إلى الله، بعد ذنب، عثرة، خطيئة، بعد غفلة، أو انكسار أهدته الحياة لنا نتيجة بعدنا عنه، أحب دموعي التي تنسكب بين يديه لتطلب منه أن يردني إليه، ردًا جميلًا وعودة بلا ميعادٍ مع بُعد آخر.

تأسرني كل مشاهدِ العودة إلى الوجهة الآمنة، إنها أشبه برشفة مشروب دافئ يتسلل إلى برودة أجسادنا ويمنحنا حفنةً حنونةً من المسرّة، أشبه بقطرات دافئة تسيلُ فوق أرواحنا فتنظفها مما علق بها من أدران متاعب مُغبِرة، وأحزانٍ موحلة، ووحدة موحشة!

أبتسم سعيدةً بآخر رشفة من القهوة، مبتهجة بوصولنا للبيت بعد نهار حافلٍ بالدهشة والسرور.

قناة الكاتبة دانية قصاص:

https://t.me/daniaqasaas